الدعوة الوهابية وأهدافها

أسرار الحرب بين أسرة محمد علي وآل سعود

للأستاذ محمد كامل حته

آن أن يكتب التاريخ من جديد ...

هكذا قلت لصديق ونحن نسمر في فندق مصر بمكة، ونستعرض تاريخ تلك الحروب الدامية التي نشبت بين مصر والحجاز في عهد محمد علي الكبير

واتصل بنا الحديث فتناول تاريخ الدعوة الوهابية، التي تعتبر إحدى انتفاضات ثلاث كان لها شأن كبير في تاريخ الحركات الدينية والسياسية في العالم العربي: الوهابية في جزيرة العرب، والسنوسية في شمال إفريقية، والمهدية في السودان ...

فما هي البواعث الحقيقية لتلك الحروب التي شنها محمد علي وأولاده على الحجاز؟

وما هي حقيقة الدعوة الوهابية وأهدافها الدينية والسياسية؟

أما هذه الدعوة، فهي — كما قلت — إحدى الانتفاضات الدينية التي انفعل بها العالم العربي، والتي كانت منبعثة من صميم الإحساس بما وصلت إليه حال المسلمين من الجهل بحقيقة الإسلام، وتدهور العقيدة وتحلل مقوماتها في النفوس، مما تخلف بهم عن مكانهم الطبيعي في الصدارة، وجعلهم خولا للأجنبي، يطأ أعناقهم ويستولي على بلادهم، ويسلبهم ما بقي من مقومات حياتهم، ميراث تاريخهم ...

وفي قرية «عيينة» من قرى نجد ولد محمد بن عبد الوهاب صاحب هذه الدعوة، في مطلع القرن الثامن عشر. وتقضي صدر شبابه مرتحلا إلى الأحساء والحجاز والبصرة وبلاد فارس. وتتلمذ على ما كتبه ابن تيمية وأتباعه، وخاصة ابن القيم وابن كثير، وهم من الأئمة السلفيين الذين كان لهم في تاريخ التوحيد الإسلامي جهود ضخمة، ردت إليه اعتباره وجددت شريعته السمحة البيضاء.

إذن فقد اجتمع للرجل في اتصاله بحياة المسلمين في كثير من الأقطار، وفي فقهه لأسرار الشريعة الإسلامية؛ ما ملأ قلبه غيرة على حال المسلمين، وحسرة على ما وصلوا إليه من جهالة وضعف وانحلال. وحفزه ذلك إلى الجهاد في سبيل تجديد إيمان هذه الأمة، وتسديد عزائمها إلى مواطن العزة والشرف.

وكانت الجزيرة العربية لذلك العهد ممزقة الأوصال، متعددة الولايات والولاة؛ لا تهدأ بينهم نار الحرب، ولا تخبو الإحن والثارات. وكذلك كان الشأن بين البدو والحضر، وبين القبائل بعضها وبعض، بل وبين أبناء البيت الواحد ممن يتنافسون على المناصب والمغانم. حتى أن أحد أشراف مكة لم يتورع عن قتل أخيه ثم طبخ لحمه وقدمه إلى بقية إخوته في وليمة ساهرة!

وكانت الخرافات والعقائد الضالة قد استحوذت على العقول، حتى لأوشكوا أن يرتكسوا في جاهلية عمياء، هي شر من الجاهلية الأولى؛ لأن أهلها يزعمون مع ذلك أنهم مسلمون ...

وبدأت دعوة محمد بن عبد الوهاب بالعمل على إصلاح العقيدة الدينية. وهل إلى ذلك من سبيل غير الرجوع إلى منابعها الصافية: الكتاب والسنة!

ومن خصائص العرب في جميع العصور، أن طبيعتهم السمحة القوية، وبيئتهم البادية المتصلة بالكون، المتفاعلة فيه، هي أقرب الطبائع البشرية إلى روح الإسلام وطبيعته. وليست كذلك طبيعة الأمم التي أغرقتها الحضارة، واستغرقتها العقائد المادية، وأنهكها الترف العقلي، وخدرتها أوهام التصوف وتهاويل الفنون ...

ولذلك استطاع الإسلام أن يحقق بأولئك العرب، بعد أن زالت عن طبيعتهم السمحة القوية أدران الجاهلية، وتطهر جوهرها النقي مما شابه من عقائد وأفكار — استطاع

أن يحقق بهم أروع وأسرع معجزة فى فتح الأمصار ونشر كلمة الله

فلما اتصلت حياتهم بتلك الأمصار ، وتذوقوا ما فيها من ألوان الحياة الحضارية، وبهرتهم دنياهم الجديدة بما فيها من زينة وزخرف ومتاع ، تأثروا بذلك كله ، فضعفت قواهم المبدعة الخلابة، ولم يستطيعوا أن يتابعوا جهادهم بعد الفتح فى تطوير عقائد تلك الأمصار، وانبعاث صور جديدة للحياة فى شتى مناحيها العقلية والاجتماعية ، يتصل إلهامها بروح الإسلام وطبيعته ، فكان أن ذرت العقائد الموروثة التى حاربها الإسلام بقرونها من جديد ، فى صور موشاة بألوان تخيل للرائى أنها صور إسلامية، وإن كانت فى مادتها ووحيها بعيدة كل البعد أو بعضه عن مادة الإسلام ووحيه ...

وانظر معى الآن ـ ولا تجزع ـ إلى ذلك التراث الضخم الذى خلفته العصور الإسلامية منذ انحسر عنها مد الغزوة المسلحة أو غاض ، وانطلقت غرائزها تبنى للاسلام حضارته العمرانية والعقلية ، فى مصر وفارس والهند وتركيا وغيرها من الأمصار؛ فتنشئ العمارة ، وتمارس العلم والفلسفة ، وتصوغ فنون الحياة ... أترى معى حقيقة ـ إذا تجردنا من أوهام ذلك التاريخ الذى نعيش فيه ، ونحررنا مما رسب فى أعماقنا من معايير وموازين ـ أن هذه الحضارة الإسلامية فى ماضيها وحاضرها ، وذلك التراث الضخم الذى نزهو به ، وتلك الحياة التى أبدعت هذه الحضارة وذلك التراث ، والتى نحياها الآن على نمط قريب مما كان يحياها أولئك الآباء والأجداد ؛ أراها معى حقيقة ، حضارة إسلامية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى؛ أم أنها حضارات متعددة تمتد جذورها إلى أعماق الأمم التى صنعتها ، فى مصر ، وفارس ، والهند ، وتركيا ، وغيرها من الأمصار ؟

قد تتهمنى بالمغالاة والتجنى على مقومات الحضارة الإسلامية . وقد تقول : إن هذا التعدد فى ألوان الحضارة الإسلامية لا يتصل إلا بمظاهرها ، وبالقدر الذى تختلف به طبيعة كل أمة ومؤثراتها الخاصة ، وأنها فى جوهرها ومجموعها تنبع من معين واحد هو معين الإسلام ...

وفى هذا الاعتراض نوع من المغالطة؛ فإن هذه الألوان المتعددة فى معالم الحضارة الإسلامية ، لا يقتصر تعددها واختلافها على المظهر فحسب ، ولا يرجع ذلك التعدد والاختلاف إلى تأثير البيئة واختلاف الطبيعة ـ وإذن لهان الأمر ؛ ولكنه أعمق من ذلك جذوراً وأبعد أسا ؛ ذلك لأن هذا الاختلاف فى الظاهر لا يقاس إلى ما بين العقائد والأفكار والمشاعر التى تكمن وراءها من تباعد واختلاف.. وبالقدر الذى يباعد بين هذه العقائد والأفكار والمشاعر الموروثة، وبين الإسلام فى حقيقته الأولى وتمثله للكون والحياة

وفى هذا الاعتراض كذلك شبهة لا يمكن إزالتها إلا بالاحتكام إلى الإسلام ذاته ؛ لا عن توهم أنه دين تأبى طبيعته التطور، وينكر حق العقل فى بحث أسرار الكون وإخضاع نواميس الطبيعة؛ ولكن عن إدراك طبيعة الإسلام باعتباره دينا يقوم على « التوحيد » فى كل شىء : التوحيد الذى يسمو بالإنسان عن كل عبودية إلا لله ، ويجعل العلم قواما على الحياة والكون، يسيطر عليهما ويسخرهما لتحقيق الرسالة التى جاء بها الإسلام لخير الفرد والمجتمع ؛ لا أن يكون عبداً للكون والحياة ، تستخدم مواهبه فى الفنون حتى يكاد يعبد ما خلق، وتستغرق عقله بالفلسفة حتى تصرفه عن العمل . .

* * *

على أنى أرانى قد أبعدت كثيراً فيما أعالج من أمر الدعوة الوهابية وبواعثها وأهدافها ، فلندع هذا الحديث الذى لا توفيه هذه الإلمامة حقه من الحجة والبيان . ولنعد إلى حديثنا عن صاحب الدعوة محمد بن عبد الوهاب :

أراد هذا الإمام أن ينهض بدعوته . وهل لها إلا تلك « الخامات » العربية التى تنطوى على عناصر الحرية ، والاتصال المباشر بالكون ، والاستواء على أقطار الحياة يبرئها مما أصابها من غشاوة الجهالة ، ويردها إلى فطرتها السمحة ، ويغذيها بوحى الكتاب والسنة ؛ ثم ينطلق بها

خفيفة مؤمنة صابرة ، تحمل أعباء الدعوة ، فتنشر الهدى المحمدى ، وتقر الأمن المضطرب ، وتحمى البيت الذى يتخطف الناس فيه ، ثم تمضى برسالتها إلى أبعد الآفاق ...

تلك كانت دعوة محمد بن عبدالوهاب . وهذه وسيلته ..

ولقد نجح هذا الداعية فى المرحلة الأولى — مرحلة الانتصار على أهواء الجاهلية ، وأدواء الجهالة ، واستنفار « الإخوان » للدعوة إلى سبيل الله — نجاحا كاد أن يتجاوز حده فيقع بهم فى السرف ، أو قد كان.

وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب تسير جنبا إلى جنب مع مراحل الدولة السعودية ، فلما دانت الجزيرة العربية لآل سعود فى مطلع القرن التاسع عشر ، كانت هذه الدعوة تزلزل قلوب كثير من السلاطين والولاة فى البلاد الإسلامية ، ويرون فيها خطراً جائحا يخشى أن تمتد آثاره فتقضى على الأوضاع الظالمة والعقائد الفاسدة التى يقوم عليها كثير من العروش والتيجان ...

أحس بهذا الخطر سلطان تركيا ، وكان يعيش فى تلك الأسطورة التى توهمه ، أو يوهم هو بها الناس ، بأنه ظل الله فى أرضه !

وأحس به محمد على فى مصر ...

وكان إحساس سلطان تركيا بخطر الدعوة الوهابية مزدوجا ؛ لأنه كان يحس فى الوقت نفسه بخطر محمد على فى مصر . فأراد أن يضرب الضربة يصيب بها الاثنين معا ، فطلب إلى محمد على أن يغزو الحجاز ؛ وأن يقضى على أولئك المتمردين العصاة !

ووجدها محمد على فرصة يضرب بها ضربته ، باسم خليفة المسلمين ؛ ظل الله فى أرضه ...

ثم كانت الغزوات والحروب التى ذهب وقودها مئات الألوف من أبناء مصر ، وعشرات الألوف من أبناء الجزيرة العربية . والتى خلقت فى نفوس الشعبين تلك الموجدة التى تذكو نارها تارة وتخمد أخرى ...

وكتب التاريخ الزائف قصص البطولة والنصر لجيوش الخليفة وولاته فى مصر ، على الدعوة الثائرة المتمردة فى جزيرة العرب . هذه الجيوش المغلوبة على أمرها ، والمسخرة لأطماع الولاة وأهوائهم . والتى حبست عشرات السنين عن أن تؤدى واجبها الحق حين كان أشراف مكة يرشون السلاطين والولاة : ثم يعيثون فى الأرض المقدسة فسادا ، فيقتلون ويسلبون ، ويغرون سفهاء البدو فيهدرون دماء الحجاج ، وينهبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، ولا يرسلون من هذه الجيوش إلا كتيبة لحراسة « المحمل » وهى تحدو ركبه بالطبول والمزامير

* * *

ويبدو أن لتلك الحروب أثراً كبيرا فى توقف الدعوة الوهابية عند خطوتها الأولى ، وهى المناداة بالشريعة الإسلامية لتكون أساس الحكم ، والرجوع إلى الكتاب والسنة فى كل أمر ، واستنفار أهل البادية ذوى الحمية والبأس للاضطلاع بأعباء هذه الدعوة . أما ماوراء ذلك من خطوات تتصل بتدعيم هذه الدعوة بالعلم ، وتخريج أفواج الدعاة الذين لا يقتصرون على سورة الحماس الدينى ، دون البصر بشريعة الإسلام فى الحياة ؛ وتعبئة قوى الأمة للتحرر الدينى والسياسى — فذلك ما قصرت عنه الأسباب ، وما انتهى بالدعوة إلى أضيق الحدود

ولقد كان من أثر ذلك أن الملك عبد العزيز ذاته ، حين أراد أن يخرج قليلا من نطاق تلك الحياة الجامدة الراكدة ، وأن يدفع بلاده خطوات يسيرة فى سبيل الحياة ؛ انقلب عليه أشد أعضائه وأنصاره من « الإخوان » أعداء ألداء ، ووقعت بينه وبينهم فتنة دامية ، انتهت بغلبته عليهم ، ووقوع زعيمهم فيصل الدويش أسيرا فى يده ، وعندئذ تنفس الملك عبد العزيز الصعداء ، وقال : من اليوم سنحيا حياة جديدة !

محمد قطب